

تأثير حديث المعراج فى الأدب العالى

يتابع علماء الأدب المقارن الصلات القريبة والبعيدة بين الآثار الأدبية فى لغات العالم ، فيعقدون موازنات دقيقة بين ما يلمسون تشابهه من هذه الآداب ، فهم يتتبعون الأفكار والأخيلة ، ناقدین محللین ، وكثيراً ما ينتهون إلى الحكم بالتأثير القريب أو البعيد فى أثر من الآثار الذائعة ، حين يحللون عناصره الأدبية فيجدون بينها أصولاً تمت إلى أثر أجنبى آخر ! وهذا شىء طبعى فى دنيا القول ، لأن الأفكار الأدبية والعلمية تتناقل وترحل فى كل مكان ، والأديب أو العالم قارئ مثقف يلتقط ما يعثر عليه إن قريباً وإن بعيداً ، وهو لا محالة متأثر بروائع ما يقرأ ، ولا يستطيع أن يمنع عن تفكيره وخياله ما يرفدهما بالقوة والنماء ، وقد كان حديث المعراج الذى حكاه نبي الإسلام أحد هذه الآثار الأدبية الخالدة التى امتد تأثيرها إلى آداب أمم مختلفة ! والتى أحدثت دوياً عاصفاً بين علماء النقد المقارن حين لمسوا خيوطها البارزة فى أكثر من نسيج فنى ، ولعلنا نؤمى إلى ذلك ببعض التفاصيل !

إن كتب الأحاديث النبوية تروى عدة آثار خاصة بليلة المعراج ، فهناك روايات سنية عن أنس بن مالك تلقى بعضها عن أبى ذر ، وبعضها الآخر عن أبى هريرة ، وعن مالك بن صعصعة الأنصارى ! وهناك آثار شيعية عن الإمام زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، تلقاها عن أبيه عن جده عن على عن رسول الله ! وهناك روايات لا تصل إلى درجة ما روى عن أنس وزيد رضى الله عنهما ! بل تظهر عليها آيات الوضع وعلائم الاضطراب ، ومن كل ذلك امتد حديث المعراج امتداداً كبيراً ، وأحيط بأقوال ضخمة للمفسرين والمحدثين والمؤرخين ! بحيث لو جمع ما قيل بصدد ذلك لشغل كتاباً ضخماً برأسه ! ثم جاء بعض العلماء فوصلوا الأحاديث المختلقة فى رواية واحدة ، وجعلوا منها نسقاً

متصلاً متلاحقاً ، بل إنهم تعدوا أحاديث المعراج إلى ما دار حولها من الشروح ثم انتقل هذا الحشد إلى الأجيال المتلاحقة ، فقرأه العلماء والأدباء ، وترجم إلى اللغات الأجنبية ، فأحدث دويه الرنان !

ونحن الآن .. في مجال إبراز التأثير القوي لحديث المعراج في الأدب العربي ، والآداب المختلفة نضع فاصلاً بين ما صحت روايته عن الرسول أو رجحت ، وبين ما ضعفت نسبته إليه لأسباب ذكرها المحدثون ! نضع هذا الفاصل لنحكم بأن ما صحت نسبته إلى الرسول كان الأساس الأول لهذه الصورة الجميلة ، عن السماء والأرض والجنة والنار ؛ إذ إن محمداً ﷺ حكى ما شاهده من العجائب حكاية رائعة فتحت أمام الأدباء مجال التصوير الفسيح ! ومن هنا .. كان تأثيره المباشر في كل رحلة خيالية إلى السماء ، وإلى الجنة والنار ! أما ما ضعفت نسبته إليه ، فقد ساقه الوضاعون متأثرين بحديث المعراج ناسجين على منواله ، فلو لا أنهم رأوا الكوى المضئية بأشعة من حديث محمد ما استطاعوا أن يقولوا شيئاً ! وهنا يكون الحديث الموضوع وليد تأثير من الحديث الصحيح ، فإذا استلهمه بعض الروائيين ، فإنما يردون مورداً اشتق إبداعه وإلهامه من حديث صحيح . ويمكننا إذ ذاك أن نسمى ما ساق الوضاعون من حديث المعراج أدباً مصنوعاً استلهم البيان النبوي ، ثم نقل تأثيره إلى أدباء العالم ، وهم بإنتاجهم المتشابه يعلنون بلسان النقد أن صاحب الإبداع الأول هو نبي الإسلام لا محالة ! وغيره قد احتذاه .

وإذا كانت رواية أنس بن مالك عن المعراج تلخص حادث المعراج بما هو معروف من مجيء جبريل إلى النبي ، وتقديمه البراق ، وارتقائه إلى السموات السبع ، فرؤية آدم ويحيى ، وعيسى ويوسف وإدريس ، وهارون وموسى وإبراهيم ، بعد سؤال وجواب عن القادم والإذن له بالزيارة ، ثم مشاهدة أنوار رب العزة وفرض الصلاة خمساً بعد خمسين عقب مراجعة تنشيد التخفيف .. إذا كانت رواية أنس بن مالك تقف عند ذلك فإن رواية الإمام زيد بن علي وهو الفقيه المجاهد الشهيد العلم

الثقة ، تفصل الأمر بوضوح مستوعب ! وهى بعد رواية محترمة عزيت إلى إمام ورع متحرز ، وذلك نصها :

قال على بن أبى طالب : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر يوماً بغلس ، فلما قضى الصلاة التفت إلينا وقال : أفيكم من رأى الليلة شيئاً . قلنا : لا يا رسول الله ، قال : ولكنى رأيت كأن ملكين أتياى فأخذا بضبعى ، فانطلقا بى إلى السماء ، فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمى ويبد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمى ، فيقع دماغه جانباً ، وتقع الصخرة جانباً ، قلت : ما هذا ؟ قالاً : امضه ، فمضيت ، فإذا أنا بملك وبين يديه آدمى ويبد الملك كلوب من حديد ، فيضعه فى شدقه الأيمن فيشقه حتى ينتهى إلى أذنه ، ثم يأخذ فى الأيسر فليثمم الأيمن ، قلت : ما هذا . قالاً لى : امضه ، فمضيت فإذا أنا بنهر من دم يفور كفوران المراحل ، وعلى حافتي النهر ملائكة بأيديهم نار ، كلما طلع طالع قذفوه بها ، فيقع فيه فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر ، قال : قلت : ما هذا ؟ قالاً : امضه ، فمضيت ، فإذا بيت أسفلهُ أضيق من أعلاه ، وفيه قوم عراة تفور من تحتهم النار فأمسكت على أنفى من تنن ما أجد من ريحهم ، قلت : ما هذا ؟ قالاً : امضه ، فمضيت فإذا أنا بتل أسود عليه قوم محنيون تنفخ النار فى أدبارهم ، فتخرج من أفواههم ومناخرهم وأذانهم وعيونهم ، قلت : ما هذا ؟ قالاً : امضه فمضيت ، فإذا أنا بنار مطبقة موكل بها ملك لا يخرج منها شىء إلا أتبعه حتى يعيده فيها ، قلت : ما هذا ؟ قالاً لى : امضه ؛ فمضيت فإذا أنا بروضة خضراء وإذا فيها رجل شيخ جميل لا أجد أجمل منه ، حوله الولدان ، وإذا أنا بشجرة ورقها كأذان الفيلة ، قلت : ما هذا ؟ قالاً : امضه ، فصعدت إلى ما شاء الله من تلك الشجرة ، فإذا أنا بمنازل لا منازل أحسن منها ، درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء قلت : ما هذا ؟ قالاً لى : امضه ، فمضيت فإذا أنا بنهر عليه جسر من ذهب وفضة وعلى حافة النهر منازل لا منازل أحسن منها من درة وزبرجدة وياقوتة وفيه أقداح وأباريق ، قلت : ما هذا ؟ قالاً لى :

انزل فتزلت فضربت بيدي إلى إناء منها ثم غرفت فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد بياضاً من اللبن وألين من الزبد ، فقال لى : أما صاحب الصخرة التى رأيت الملك يضرب هامته فيقع دماغه جانباً وتقع الصخرة جانباً فأولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ، ويصلون الصلوات لغير وقتها ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما صاحب الكلوب الذى رأيت به ملكاً موكلاً بيده كلوب من حديد يشق به شذقه الأيمن حتى ينتهى إلى أذنه ثم يأخذ فى الأيسر فليلتئم الأيمن ، فأولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ليفرقوا ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما البيت الذى رأيت أسفله أضيق من أعلاه وفيه قوم عراة توقد من تحتهم النار ، فأمسكت على أنفك من نتن ما تجد من ريحهم ، فأولئك الزناة وذلك نتن فروجهم فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما التل الأسود الذى رأيت عليه قومًا محنين تنفخ النار فى أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم ، فأولئك الذين كانوا يعملون عمل لوط الفاعل والمفعول به فهم يعذبون بهذا حتى يصيروا إلى النار ، وأما النار المطبقة التى رأيت ملكاً موكلاً بها كلما خرج منها شئ أتبعه حتى يعيده فيها ، فتلك جهنم حتى يفرق بين أهل الجنة والنار ، وأما الروضة الخضراء التى رأيت فتلك جنة العامة ، وأما الشيخ الذى رأيت لا أجد أجمل منه حوله الولدان فذاك أبوك إبراهيم ، وأما الشجرة التى رأيت وطلعت إليها فيها منازل لا منازل أحسن منها درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء ، فتلك منازل أهل عليين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، وأما هذا النهر الذى رأيت فنهر ك الذى أعطاك الله ، وهذه منازلك ومنازل أمتك ، ثم نوديت من فوقى : يا محمد ، سل تعط ، فارتعدت فرائصى ورجف فؤادى واضطرب كل عضو منى ولم أستطع أن أجيب شيئاً ، فأخذ أحد الملكين يده اليمنى فوضعها بين ثديى ، وأخذ الآخر فوضع يده بين كتفى فسكن ذلك منى ، ثم نوديت من فوقى : يا محمد ، سل تعط ،

سل تعط ، قال : قلت : اللهم ، أسألك أن تثبت شفاعتي وأن تلحق بى أهل بيتى ، وأن ألقاك لا ذنب لى» ^(١) .

هذه بعض المشاهد من عالم الغيب كما رواها حديث المعراج ، وكان من المنتظر أن ننقل حديث ابن عباس بدل حديث زيد بن على . حيث يتضمن كثيرًا من مشاهده ، ولكن المحدثين قد ردوه مع ما ردوا من روايات ضعيفة ذكرها الدكتور على حسن عبد القادر ص ١٢٨ من كتاب « المعراج » ، كما ذكر الدكتور بعض مصادر الروايات الصحيحة ص ١٣٧ ، فحديث المعراج إذاً كما روته الروايات الراجحة ، ولخصه حديثاً أنس وزيد ، يعتبر فتحاً مبتكراً في عالم البيان التصويرى ، تمخض عن الجديد الطريف ، وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب حديثاً آخر ينحو نحو حديث زيد فى لبابه ، فيتحدث عن رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله فى شدقه ، وعن رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، وعن رجال ونساء عراة فى تنور ، أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد ناراً عليهم ، وعن نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل يحمل أحجاراً ، فكلما اقترب سابح النهر رجحه فيرجع ، وعن روضة خضراء ذات شجر مزهر ، وبها دار وشباب وشيوخ .. ثم فسر جبريل فى حديث البخارى جميع ما يرمز إلى ذلك بما لا يخرج عن الإجابة فى حديث زيد ، وإنما ألمعنا إلى ذلك لنزيل الشك من صدور لا تزال تقابل بعض روايات الشيعة بالصدود. وهى فى ذلك واهمة مغرقة ، لأن أئمة الشيعة المخلصين من أمثال زيد بن على وجعفر الصادق لا يمكن أن يرتقى الشك إلى أقوالهم ، وإذا وجد فى الشيعة مغالون مغرضون ، فلن يذهبوا بفضايا الأئمة المخلصين . وقد جرت سنة الله أن يوجد الباطل مع الحق فى كل شىء ، وفى رجال الدين من شيعة وسنيين .. وقد آن لنا فى مجال البحث العلمى أن ننصف إخواننا فى الإسلام دون أن نأخذ البرىء بإثم

(١) « المعراج » للقسيرى تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر من ٣٩ - ٤٢ .

الظالم ؟ ولعل الأزهر الشريف قد فطن إلى ذلك حين قرر دراسة فقه الشيعة بكلية الشريعة ؛ كي يلتقى المسلمون على نهج سواء !

لا جرم أن مشاهد القيامة في القرآن ، قد صورت اليوم الآخر تصويراً لا ينفد سحره ، ولكن القيام برحلة في عالم الغيب مما أبرزه حديث المعراج لأول مرة في الأدب العربي ، وقد استغله الخطباء والواعظون في مواقف الترغيب ، والترهيب ، وليس هنا مجال القول في ذلك ، ولكننا نبحث عن التأثير الفني الخالص في الأدب العربي أولاً ، ثم في غيره من الآداب !

أما الأدب العربي فقد كان أبو العلاء أبا عذرة الرحلة الخيالية به إلى الجنة والنار في « رسالة الغفران » حيث استهلها بزيارة للفردوس تصف شجره وأنهاره ، ولبنه وخمره وأوانيه التي شكلت على هيئة الطير السابحة من كراكي ومكاكي وطواويس ، فبعض في الجارية ، وبعض على الشط ينبع من أفواهها شراب كأنه من الرقة سراب . فإذا قذفوا الأواني في الأنهار سمع لها أصوات بمثلها تبعث الأموات ، ثم أخذ يتحدث عن تخيلهم بالفردوس من الشعراء كزهير بن أبي سلمى ، وعبيد ابن الأبرص ، والهلدي ، والنابعين مناقشاً إياهم فيما ينقده من أدهم المأثور ، ويمر به رف من أوز الجنة ، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ، ومن شأن طير الجنة أن يتكلم ويناقش ويغنى لسمعهم ليبد والجعدى والأعشى ، ثم يقابل حسناً فينقد بعض ما قاله ويتطرق فجأة بصاحبه إلى يوم الموقف في يوم مقداره خمسون ألف سنة ، وبه يطول الأمد ، ويشتد الظمأ فيستشفع برجل عليه نور يتلأأ هو حمزة ابن عبد المطلب فيرسل معه رسولاً إلى علي بن أبي طالب ليخاطب النبي في شأنه ، فيمر بأبي على الفارسي في حلقة من الأدباء يناقشونه تحريجاته النحوية والصرفية إلى أن يصل إلى على فيسأله عن التوبة ، ثم يرد الحوض ويستشفع بفاطمة بنت محمد لتستر حم أباه ، فيشفع له ، ويعبر الصراط إلى الجنة فيحاور رضوان قبل دخوله ، ثم يلج إلى نعيم الفردوس ليقابل حميد بن ثور ، وليبدأ ، ويقم

لها ولزملاتها من الشعراء مأدبة حافلة بما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، فيجتمع خلق كثير فتوضع الخون من الذهب والفواير من اللجين ، فإذا قضوا الأرب من الطعام دار الشراب والغناء وتحديث الأدباء ! ويعبر طاووس من طواويس الجنة يرون مرآة حسنًا فيشتهيهِ أبو عبيدة مصوصًا ، فيتكون كذلك في صفحة من الذهب فإذا قضى منه الوطر انضمت عظامه إلى بعض ثم يعود طاووسًا كما بدأ ، ويمر ملك كريم فيعطيه ثمرة من شجر الحور رمانة أو تفاحة أو ما شاء الله من الثمار ، فيكسرُها فتخرج منها حورية عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان وتقول له : إننى أتمنى لقاءك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة ، ويبدو له أن يطلع إلى أهل النار ، فيركب بعض دواب الجنة ، فيرى فى الطريق جنة العفاريث المؤمنين بمحمد المذكورين فى سورة الأحقاف ، فيسمع أشعار الجن ويشهد صرع فتاة تصور لها الجن فى صورة فأر ، ثم فى صورة صل ، ثم فى صورة ريح ويتساءل عن لغة الجن وحديث الرجم . ويرى بعض آساد الجنة ويحدث الحطيئة وقد جلس فى أهون منازل الجنة . فإذا وصل إلى أقصى مكان بها وجد الخنساء تجلس هكذا ل ترى أخاها صخرًا يعذب فى جهنم ، فإذا أطاف بالنار رأى إبليس يضطرب فى الأغلال والسلاسل ، ومقاطع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية ، ثم يصطنع على لسانه فكاهاة سمجة ما كان أخرى أبا العلاء باجتنابها فى مثل هذا الموقف ، ويرى بشار بن برد فى أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فتفتحها الزبانية بكلايب من نار ، فيحدثه مع زملائه المعذبين من أمثال امرئ القيس ، وعنترة ، وعلقمة ، وعمر بن كلثوم ، وطرفة ، وأبى كبير ، والأخطل وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله فيقول للزبانية : « ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك ، ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ، فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر ، فيقولون : ليس لنا على أهل الجنة من سبيل . ثم يقابل المهلهل ، والشنقرى ، وتأبط شرًا ، وبعد الرحلة الجهنمية يقفل إلى فردوس يحاور آدم وذات الصفا ، ثم

يضرب في غيطان الجنة ليقابل حوريته التي انشقت عنها الثمرة ويتكىء على مفرش من السندس ، ويأمر الحور العين أن يحملنه فيضعنه على سرير ذهبى فى الجنة فيحمل إلى محله ، وكلما مر بشجرة نضحته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور!»!

رحلة رائعة التصوير محلقة فى القمة من عالم الفن ، ولو رسمنا مشاهدنا فى لوحات فنية كما رسمت مشاهد الكوميديا الإلهية لأمكن أن تقارن بها . وأذكر أن فريقاً من أساتذة الأدب المقارن قد تلاخوا بصدد تأثير أبى العلاء فى دانتى ، فمن مثبت هذا التأثير متعلل بما عرف من اتصال الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية، وبعدها عن طريق مصر والشام وصقلية والأندلس ! فلا بد أن تكون رائعة أبى العلاء مما ترجم وقدم إلى دانتى فهضمه . وتلك قضية يتعذر فيها وجه الحق ، وبخاصة إذا علم أن دانتى لا يمكن أن يصبر على قراءة قصة عسيرة الفهم لدى غير متخصص فى علوم العربية ؛ إذ إن « رسالة الغفران » تضم من النقاش النحوى والصرفى واللغوى ما يخفف كثيراً من رونقها .

بل ما يجعل تقديمه فى ترجمة أجنبية نوعاً من الألغاز الغامضة . والذين قد تلاخوا بصدد تأثير دانتى بأبى العلاء كان عليهم أن يتجهوا إلى حديث المعراج مباشرة ، وهو المصدر الأول لأبى العلاء باتفاق ، أما كونه المصدر الأول أو أحد المصادر المهمة لدانتى فهذا ما سيتضح لنا عن قريب .

لقد بدأ (دانتى) جحيمة ذاكراً أنه كان يضرب على غير هدى فى تيه لا أول له ولا آخر ؛ إذ يضل فى غابة مظلمة تعج بالأفاعى والوحوش ، وقد أنقذه (فرجيل) من أحد الكواسر بعد أن كاد يمزقه . وقد دلفا معاً إلى الجحيم ، فسمع دانتى أنين المعذبين فسأل عنهم فرجيل فأجابه أنهم الذين قضوا حياتهم فى هو لا يعبأون بأوامر الله ! ثم رأى الجبار (خارون) منتصباً كالوحش فى زورق ينقل أرواح الأشقياء من عدوة إلى عدوة ، فدارت الأرض برأس الشاعر من هول مشهده ثم دوى رعد

قاصف أنقذه من غيوبته ، فانطلق مع صاحبه إلى دركات الجحيم . دركاً وراء درك ليرى بعض القوم تعصف به ريح السموم ، وتشره كما ينثر الريش في يوم عاصف ، ويرى أصحاب المطاعم المنكرة تنصب فوقهم شآبيب من برد وثلج ، ويمزق أجسادهم الكلب (سيرسيروس) بأنيابه الحداد ، ثم يعبر دركاً آخر ليرى نهراً من الدم تسبح فيه أرواح الذين آذوا جيرانهم بالافتراءات ، ثم يرى في درك آخر عصبة من المزورين المختلسين يسبحون في حديد يغلى بالقار ، وحراسهم زبانية قباح الوجوه . أما المنافقون فيرتدون عباءات من نار وطراطر من جمر . وقد فجر دانتى فجوراً خسيساً سافلاً حين أعماه التعصب فجعل نبى الإسلام - أكرم خلق الله وأشرفهم على الإطلاق - بين أهل النفاق من المعذبين ! وذلك ما ينتظر من كاثوليكى متعصب ظل يأسف على انقضاء الحروب الصليبية دون أن تستأصل المسلمين .. ثم يشهد زمهرياً من ثلج وبرد وماء يلف الآثمين في قرار الدرك التاسع ، وحينئذ ينتهى الجحيم ويصل إلى المطهر فيهب عليه أول أنفاس الفجر المرطب بالندى ويرى النجوم تتألق في بنفسج السماء ، ولجة ترغى وتزبد حول جزيرة نائية ينهض فوقها جبل شامخ رفيع الذرى ^(١) ، ثم ينظر (دانتى) فبلا يرى إلا خياله حين تشرق الشمس منبطحاً على السفح من ورائه ، فينزعج ويحسب أن (فرجيل) غادره ورحل ، ولكن فرجيل يطمئنه ويخبره أن أرواح الموتى أضواء شفاقة لا ظلال لها ، كما يكون لأهل الدار الفانية ، ثم ينطلقان ليقابلا عشرات الناس من أعلام الأدب والسياسة ، والحب والدين في أوروبا ، وحوهما ضجيج الأرواح الهائمة ، تلغظ جميعاً بهراء من الحسد والأحقاد القديمة ، إلى أن يصلا إلى شجرة باسقة ذات طلع نضيد ، وفاكهة حلوة يفوح عبيرها ، وفي أوراقها أرواح تذكر الله وتسبح بحمده ، وتشكر له ما رزقها من عفة . والناقدون يرون سدرة المنتهى في المعراج هى التى ألهمت دانتى صورة هذه الشجرة وترى الأرواح الهائمة

(١) من ترجمة الأستاذ د. خ. من مجلة الرسالة أعداد يوليو ، وأغسطس سنة ٣٦ .

فى النار ظل دانتى على اللهب فتدهش لوجود حى من الدار الفانية فى هذا المكان . ثم يلتقى الشاعر بحبيته (بياتريس) فتكشف له عن شئون غيبية كثيرة ، ويظلمان يتحدثان عن نهر يونو ، فإذا انتهى من المطهر سما إلى الفردوس ، فاحتسى جرعة نزعت ما فى نفسه من أدران الدنيا ، وجعلت جسمه هلاماً شفافاً وهيولى نقية ، كى يرقى فى السماء دون عائق ، ومضى فى رحلة سماوية إلى كواكب عطارى والزهر والمريخ والمشتري ليحدث من أدخلهم الجنة من ذوى محبته مثل : (جوستنبان) إمبراطور روما ، (وشارل مارتل) قائد النصرانية فى معركة بلاط الشهداء ، وطائفة من أرواح شهداء النصرانية فى الحروب الصليبية ، يمرحون فى أفياء الجنات الوارفة التى يهتز عنها المريخ ، ومثل (بندكت ، وداميانو ، وبطرس ، ويوحنا) من كبار القديسين . ثم يرى السيد المسيح وفى أثره مريم البتول ثم يدخلان سماء المنتهى - بهذا التعبير القرآنى - ذات الضوء الوهاج ، فيقف قليلاً ثم يفيق من رؤياه . وتنتهى الرواية .

تلك هى الخطوط الواضحة فى كوميدى الشاعر ، وأثر حديث المعراج بها أوضح من أن بدل عليه ، فهو يتجلى فى تكوين الهيكل العام للكوميديا من رؤية المعذبين والسؤال عن جرائمهم ، ومن أدوات التعذيب وزبانيته ، ومن بحار الدم والصيد . ومن سرد طائفة من مقابح وما أعد لها من العقاب . ومن غير ذلك مما يستشفه القارئ من خلاصتنا المركزة التى أوجزنا بها خطوط الكوميديا الإلهية ، وقد قامت معركة حامية بين المستشرقين ما بين منكرين لتأثير حديث المعراج ، ومثبتين له حتى عثر على مخططات قديمة لحديث المعراج ترجمت قديماً إلى اللاتينية قبل زمان الشاعر ؛ مما يثبت إلمامه بها فى لغته ووطنه ، ولهذا الكشف الأدبى الجليل قصة طريفة لا مناص من الإشارة إليها بإيجاز :

لقد عاش (دانتى) فيما بين القرنين : الثالث عشر والرابع عشر ، ورحل عن الحياة متمتعاً بصيت أدبى رنان ؛ إذ اعتبرت ملحمتة الإلهية أنضج ثمار الأدب

الإيطالى فى جميع عصوره وظلت موضع المباحة لدى قومه ، فكانوا يقابلون بالاستنكار والتهمك أحياناً - من يسعى لإيجاد مقارنة بينها وبين النصوص العربية أو اليونانية ، ويرون ذلك محاولة للنيل من شاعر مبتدع جل أن يقرن إلى نظير ، ولكن عشاق المعرفة فى كل مكان لا يزالون بإشباع الغرور القومى لدى بعض الطليان ، فهبوا فى القرن الماضى يعقدون الدراسات المختلفة بين التشابهات من أمثال ملحمة (فرجيل) وحديث المعراج ، ورسالة أبى العلاء . وتتوالى الردود عليهم من المعارضين دون أن يتقدم البحث خطوة إلى الأمام ، حتى جاء المستشرق الأسباني العظيم الأستاذ (آسين بلاثيوس) ، سليل أبناء الأندلس الذين أشرقت بحضارتهم الإسلامية أوروبا فى عصور الظلمات ، فأخذ على عاتقه أن يترهب رهبة متصوفة فى البحث عن تأثير أجداده العرب من الأندلسيين فى آداب العالم وثقافته ، ووصل فى بحثه إلى نتائج مذهشة تثبت تأثير بثولوجية ابن رشد فى سان اكوييتس ، وابن عربى فى ريموندلال ، وإخوان الصفا فى فرانس انسلموا ، وجاءت خاتمة أبحاثه تعبن تأثير القصيدة الإسلامية فى كوميدى دانتي . إذ ساعدته دراساته العربية العريقة أن يتبع أكثر خواطر الشاعر معقبا عليها بنظائرها فى القرآن والحديث وقصة المعراج ، وبعض آثار (ابن عربى) المتصوف الأندلسى ، وكان ما قدمه (بلاثيوس) من النصوص الإسلامية مذهلاً للكثيرين ممن كانوا يؤمنون بأفكار دانتي وطرافة خلقه الفنى . ولكن مجال الأفكار بعد ذلك لا يزال متسعاً ؛ إذ إن هناك سؤالاً لا يجد الجواب الشافى وهو : كيف تطرقت المعارف الإسلامية إلى الشاعر الإيطالى الكبير ؟ ولو كان الجدل المقارن وحده مجال الترويج لا نحسم النزاع ؛ لأن تحليلات (آسين بلاثيوس) كانت من القوة بحيث لا يتطرق إليها اللبس ، ولكن المتمسكين بالعثور على وثيقة تثبت إمام دانتي بالثقافة الإسلامية يرفضون كل جدل منطقى مقنع ويودون ما يلمس باليد لا ما يدرك بالعقل ، ولم يستطع الباحثة الكبير (بلاثيوس)

أن يجد هذه الوثيقة فمات بحاجة لم يقضها ، كما مات الفراء وفي نفسه شىء من حتى ..

ولكن الحق لم يعدم أنصاره ؛ إذ اجتهد بعده المستشرق الإيطالى الأستاذ (مونيرى دى فيبار) فى تتبع هذه المسألة حتى عثر على ترجمتين غريبتين مخطوطتين لقصة المعراج ، كما رواها أهل الحديث النبوى ما كتبت أولاها بالفرنسية وحفظت بمكتبة اكسفورد وكتبت الأخرى باللغة اللاتينية وحفظت بالمكتبة الأهلية بباريس ، وجاء بعده الأستاذ الإيطالى (تشيرولى) ودرس المخطوطتين فأكد وجهة نظر الأستاذ (مونيرى) ، ومن قبله (بلاثيوس) وسارع بنشرهما مضيفاً إليهما ما تتطلبان من الحواشى والتفسيرات لتوضيح مسألة التأثير وبتوالى البحث ، ظهر أن كلتا المخطوطتين ترجمت عن القشتالية من العربية إذ قام بترجمة القصة إلى القشتالية طبيب يهودى كان ببلاد الملك (الفونسو) بأشبيلية سنة ١٢٦٣ م يدعى : (إبراهيم الفقيم) ثم نقلها فى أثره إلى اللاتينية والفرنسية معاً الكاتب الإيطالى (بونافتورا) الذى كان سكرتير (الفونسو) (١٢٢١ - ١٢٧٤ م) .

لقد وقعت فى أيدينا الوثيقة المطلوبة إذاً ، ولو عثر عليها (بلاثيوس) لعد نفسه أسعد باحث خدم قضية غامضة ، فسلط عليها من الأشعة ما يجلو الغموض ، ولكن الذين تم على أيديهم اقتطاف الثمرة يعترفون بالجميل لمن غرس البذرة وعمل على إروائها وتنميتها بعد أن مهد الأرض وقواها بالحرارة والتسميد .. وبهذا أصبح مؤكداً لدى العلماء أن (دانتى) وقد انتشرت هذه النصوص قبل ميلاده قد اقتبس فكرة كوميدياه من المعراج وتأثر به فى نظمه وتفكيره وخياله أوضح تأثر .

يقول المستشرق الإيطالى الكبير الأستاذ (امبرتو ريزتيانو) الأستاذ بجامعة القاهرة من بحث نشرته مجلة الرسالة بافتتاحية العدد (٩٤٠) ما نصه :

« هذا .. وقد يتساءل الباحث عما إذا كانت ترجمة من هذه التراجم الثلاث كانت معروفة فى إيطاليا أثناء القرون الوسطى ، والإجابة فى هذه المرة لا بد أن تكون

بالإيجاب ؛ إذ ورد ذكر هذا الكتاب الخاص بقصة المعراج في كتابين من مؤلفات كاتبين إيطاليين عاش أحدهما في منتصف القرن الرابع عشر ، وعاش الآخر في أواخر القرن الخامس عشر ، وليس هذا إلا دليلاً على انتشار المعلومات عن العقائد الإسلامية وفلسفة العرب في بلاد أوروبا ، ولا سيما إيطاليا في القرون الوسطى ، وهذا ولم يقتصر المستشرق (تشيرولى) على نشر الترجمتين الفرنسية واللاتينية وعلى ملخص الترجمة القشتالية فحسب ، بل أضاف قسمًا ثالثاً جمع فيه كل الشواهد التي تثبت هذا الانتشار وعلى رأسها : حوار جرى بين محمد ﷺ وعبد الله بن سلام ، ترجمه إلى اللاتينية (أرمانوالد عاطى) سنة ١١٤١ نقلاً عن الكتاب المعروف «رد الكلام في مسائل عبد الله بن سلام » ، وقد يتساءل الإنسان كذلك عن قيمة البحث الذى قام به (تشيرولى) ، والإجابة عن ذلك أنه نجح كل النجاح في إيضاح المسألة التى أثارها (بلاثيوس) كما نجح في وضع هذه المسألة على أساس أمتن من الأساس الذى وضعها عليه المستشرق الأسباني .

وأظن أن المتتبع لأدوار هذه القضية بإنصاف وحيدة لا يسعه إلا القول بتأثير حديث المعراج في أروع تحفة يفتخر بها الإيطاليون ، و يقيمون (لدانتى) كل عام مهرجاناً تذكاريًا لإبداعها ، ويرصدون الجوائز الأدبية باسمه من أجلها وكأنه بها فى رأيهم أعظم أديب عرفه التاريخ .

أما أثر المعراج فى الأدب الفارسى ، فما أوضحه وأقواه فيما نعرفه من أشعار المتصوفة بفارس . وهم مسلمون قد درسوا عقائد شريعتهم وألوا بحياة نبيهم ، ثم جذبتهم قصة المعراج إلى رحلات خيالية بديعة قاموا بها على جناح الشوق إلى آفاقهم الروحية ، ومن أشهرهم فى ذلك شيخهم الشاعر الأكبر (سنائى) صاحب كتاب الحديقة ، ومثنويات كنوز الرموز ، وحديقة الحقائق ، وسير العباد إلى المعاد وغيرها ، وقد اتصل فى صدر حياته بملوك غزنه ، إلا أنه تزهّد وتصفوف وحج على قدم التجريد . وهنا تدفق الطوفان الإبداعى على لسانه شعراً تردد على ألسنة

معاصريه ، وتتلذذ عليه من سلك سبيله من بعده ، أما معراج (سنائي) فقد نشره في كتابه (سير العباد إلى المعاد) ليشرح رجوع النفس من عالمها المظلم الذي سقطت فيه إلى أصلها الإلهي ومقرها الأخير . قى رحلة تصور مقامات المتصوفة وأحوالهم تصويرًا ، يدركه المتخصصون ممن تشربوا مصطلحات القوم وعرفوا خفايا رموزهم ودقائق ألطافهم ، وإذا كان (سنائي) قد سبق (دانتى) في الزمن ، فإن المستشرق الأستاذ (نيكلسون) قد عقد بينهما مقارنات تدل على استقاء الشاعر الإيطالي ^(١) من معين الفكر الإسلامي ، وإذا كان اطلاع دانتى على روائع سنائي لا يزال افتراضًا ، فإن اطلاعه على حديث المعراج النبوي قد انتقل من ضباب الافتراض المحتمل إلى ضياء اليقين الجازم ، وقد تأتى الأيام المقبلة بالجديد من تأثير سنائي إذا طرد البحث على وجهه النزيه ..

أما متصوفة الأدب العربي ، فقد جذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية ، وأنوارها السماوية دون شك ، وأوضح من تأثر بها إمامان كبيران هما : (محيي الدين ابن عربي) الأندلسي ، (وأبو يزيد البسطامي) ، فالأول في الفتوحات المكية قد ذكر عن العرش والسدرة وأنوار ذى الجلالة ما يجد أصله في الصحيح من حديث المعراج والموضوع معًا ، والطريف أن الأستاذ (نيكلسون) يجعل (دانتى) متأثرًا أيضًا بابن عربي في ذلك ، ويفيض في مقارنات طريفة ليس هنا مجال تفصيلها ، وقد أشار إليها الدكتور (مبارك) في الجزء الأول من التصوف الإسلامي ص ٢٠٧ نقلًا عن غيره ، أما (أبو يزيد البسطامي) ، فقد نشر الدكتور (على حسن عبد القادر) نص معراجه ملحقًا بكتاب القشيري ص ١٢٩ ، وهى رحلة روحية بديعة تجسم المعنويات في صور حية تنطق بالبراعة والإبداع . ويقول في مطالعه :

« إنى رأيت في المنام كأنى عرجت إلى السموات قاصدًا إلى الله ، على أن أقيم معه إلى الأبد ، فامتحتن بامتحان لا تقوم له السموات والأرض ومن فيهما ؛

إذ بسط لى بساط العطايا نوعاً بعد نوع ، وعرض على ملك كل سماء ، ففى ذلك كنت أغض بصرى عنها ، لما علمت أنه بها يجربنى فكنت لا ألتفت إليها إجلالاً لحرمة ربى ، وكنت أقول فى كل ذلك ، يا عزيزى ، مرادى غير ما تعرض على » .

ثم مضى (أبو يزيد) يذكر ما رآه فى السماء الدنيا من طير أخضر نشر جناحاً من أجنحته فحملته إلى صفوف ملائكة يضعون أقدامهم بالنجوم فتساءلوا عن بشر يصعد إلى مقر الأملاك ، فألهم كلمات قالها ، ثم صعد إلى السماء الثانية فرأى فوجاً من الملائكة يستقبلونه استقبال مدينة لأمرها ، وتقدم إلى روضة خضرة تحوى نهراً وحوله ملائكة يطيطرون إلى الأرض كل يوم مائة ألف مرة ، وعلى حافته أشجار من نور ولها أغصان كثيرة متدلية فى الهواء وفى كل غصن وكر طير وفى كل وكر ملك ساجد . فترك ذلك إلى سموات أخرى فإذا جميع الملائكة يسلمون عليه ، وإذا ملك منهم له أربعة أوجه : وجه يلى السماء ، ووجه يلى الأرض ، ووجه يلى الملائكة ، ووجه يبعث بجنوده يسبحون الله فى كل مكان ، ثم نشر جناحاً من أجنحته فإذا على كل ريشة من ريشه قنديل يظلم ضياء الشمس فى ضوءه وقد أغواه الملك بأشياء ترفع عنها ؛ إذ إن مراده الأسمى يحل عن الإغراء ، ثم ارتقى فجلس على كرسى فوق شاطئ بحر عجاج لا أول له ولا نهاية ، فألهم التسبيح مشغولاً بذكر الله عن كل شىء . فإذا ملائكة قيام فى السماء ، رءوسهم فى أجوازاها العالية يقطر منهم نور تبرق له السموات ويسبحون الله بكل لغة ، فرد عليهم بلغاتهم جميعاً . وما زال يرتقى ويطير ويجول مملكة بعد مملكة ، وبحراً بعد بحر ، حتى انتهى إلى الكرسى ، فاستقبلته ملائكة لهم عيون عدد نجوم السموات يبرق من كل عين نور تلمع منه ، فتصير تلك الأنوار قناديل حيث يسمع من جوف كل قنديل تسبيح وتهليل ، ثم لم يزل يطير حتى انتهى إلى بحر من نور يظلم ضياء الشمس فى أشعته ، وعلى البحر سفن نورانية أخذ يعبر عليها سفينة سفينته حتى رأى حملة العرش من الكرويين قال

(أبو يزيد) : « فلما علم سبحانه وتعالى منى صدق الإرادة فى القصد نادانى إليه ،
ثم سقانى شربة من عين اللطف بكأس الأُنس ... ثم قابل روح محمد فسلم عليه
وأوصاه .. » .

تلك خيوط من معراج (البسطامى) ، وقد قيل عنه إن (أبا يزيد) يذكر ما
يذكر على لسان الحال لا الوقوع ؛ ليقرب إلى الوجدان بعض أحاسيسه . ولا نملك
الحكم هنا على أحوال القوم ، إنما نثبت قضية التأثير كما اتضحت معالمها لدى
الصوفى الكبير .

إن حديثاً نبوياً - كحديث المعراج - يترك دويه فى الآداب العربية والفارسية
والأوروبية وغيرها ، لجدير أن نفسح له أطياب مكان ، فى رسالة نتحدث عن أدب
محمد بن عبد الله !

* * *